العرب
الأحد 2020/08/30
السنة 43 العدد 11805

امرؤ القيس وطه حسين ليسا آخر من اضطهد المرأة

نظرة على المدونة النقدية العربية بصدد المرأة المحاصرة بالذكورية

لم يكنِ السؤال عن أسباب ندرة النتاج الفكري والنقدي للمرأة العربية سؤال ترف، وإنما هو سؤال ضرورة يبحث عن مشكلة حقيقية، جعلت من المرأة تابعةً للرّجل الذي تسيّد، ومع الأسف لم تستطع أن تتجاوزه، أو حتى تتحرّر من الهيمنة الذكورية التي فرضها بوسائل عدّة، حتى أضحت أقرب ما تكون إلى الوصاية عليها.

حصار الذكورية للمرأة إما ناعم أو عنيف (لوحة للفنانة زينة مصطفى سليم)

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

الرجل الذي دعا إلى تحرّر المرأة، ونادى بمساواتها له، أنكر عليها حقها في التفكير، بل مارس الإقصاء على كل نتاجها الإبداعي والفكري النقدي! وهو ما يضعنا أمام مأزق حقيقي، بين دُعاة التنوير، وهذه العقليات الراديكاليّة، مع أن المسافة بين التنوير والحجر بعيدة، ولا يمكن أن يلتقي أصحاب الفكر التنويري والظلامي في نقطة مشتركة، إلّا أنّه مع الأسف في مسألة المرأة التقى الاثنان، وهو ما كشف عن قشرة الحداثة الوهمية التي يدعيها التنويريون وأصحاب دعوات الحريات، والمساواة. فوجود المرأة في دائرة الرجل، ما هو إلا وجود رمزي أو شكلي مناقض لطبيعتها في وعيه.

ثمة أسباب كثيرة وراء هذا الغياب وتلك الندرة للنتاج الفكري والنقدي للمرأة العربية، تكرّرت في سياقات مختلفة، فالبعض يردّها إلى واقع الدول العربيّة التي تجيد الفصل والتمييز بين الرّجل والمرأة، وهناك مَن أرجع الأمر للمرأة نفسها التي ارتضتْ بهذا الدور وبقيتْ في بؤرة الظل، دون أن تسعى لأن تتحرّر وتخرج إلى نقطة الضوء، إضافة إلى "شعور المرأة بالاضطهاد الذي ولّد فيها شعورا عميقا بالعداء تجاه الذكر، وهو ما عَرْقل إنتاجها الفكري؛ إذ بقيت حبيسة المعركة الجنسية "ذكر/ أنثى"، ولم تخرج منها نحو آفاق أرحب، مما جعل إنتاجاتها الفكرية محدودة مقابل نشاطاتها المدنية في الإعلام والمجتمع المدني.

العنف الرمزي

يمكننا الإشارة هنا إلى أنّ المرأة في العالم العربي والإسلامي قد "نجحت في إنتاج خطاب يدين ممارسات المجتمعات الذكورية، ولكنّها لم تنجح في تفكيكها وفهمها"، كما تقول الباحثة التونسية خولة الفرشيشي في مقالتها "العقل ذكر والعاطفة أنثى".

وإن كان هناك مَن يدين المرأة في هذه النقطة تحديدا، فاعتراف المرأة بالهيمنة الذكورية، وما تمثّله من اضطهاد وفق اعتمادها بنية ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة، ساهمت في هذا الاضطهاد إلّا أنّ هذا يعود إلى المرأة أساسا التي ساهمت في تغذية الهيمنة الذكورية واستمراريتها، فوفقا لبيار بورديو، في كتاب «الهيمنة الذكورية»، أنه "لم يكن من الممكن اضطهاد النساء دون موافقتهن"، وهو الأمر الذي يجب أن يتوقف عنده علماء النفس والاجتماع معا.

وثمة سبب آخر يتمثّل في أن المرأة كانت تعمل ضدّ نفسها، فيشير جورج طرابيشي في كتابه "أنثى ضد الأنوثة: دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي" إلى أن السعداوي كانت تتبنى أيديولوجيا متناقضة تبدو مناصرة للمرأة، إلا أنها تتقاطع مع أيديولوجيا لا شعورية معادية للمرأة، فبعض أعمالها ينتمي إلى الجنس المضطهَد، حيث تضع السعداوي المرأة في وضع المُنسحقة والمُستلبَة لصالح الأيديولوجيا الذكورية، فالزهور المغمضة وهي تتفتح في ضوء الشمس لأوّل مرّة، تكون بين أمريْن، إمّا الاستسلام ومن ثم الانسحاق، أو المقاومة واستبدال الورق الناعم بـ"شوك نافر مدبّب"؛ عندئذ تستطيع أن "تحيا وسط النحل الجائع" على حدّ تعبير السعداوي في إهداء روايتها "امرأتان في امرأة".

وما دامت الإدانة تنحصر في سطوة النظام الأبوي بشقيه؛ البنى الكبرى (المجتمع، الدولة، الاقتصاد) والبنى الصغرى (العائلة أو الشخصية الفردية) فأسئلة من قبيل: لماذا لم تنجح المرأة العربية -على الأقل- في رسم ملامح المساواة في المشهد الفكري، ولماذا لم تسعَ إلى الاستقلال، وما هي المعوقات التي تواجهها؟ تبدو عبثيّة ولا قيمة لها. فالمرأة استطاعت أن تحظى بالقليل من الحرية، سواء بنضالها الشخصي، أو بفعل المتغيرات التي حلّت سواء بانتشار التعليم، أو باقتفاء أثر دعوات حركات التحرّر في العالم، لكن كل هذا فقد تأثيره الفعليّ بسبب الحاضنة الاجتماعية، التي -وما زالتْ- تُكبّل المرأة بقيود شتى لا تبدأ بالدين، ولا تنتهي عند الأنساق الثقافية الحاكمة، والتي تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن ثم تضيع كل جهود المرأة في الاستقلال سُدى.

لو تأمّلنا وضعية المرأة على امتداد تاريخ الثقافة العربيّة، لوجدنا أن المرأة على الرغم ممّا هيّأته بيئات مختلفة لسطوع نجمها في مجتمع الرِّجال، على نحو ما أتاحت أسواق الشعر في عكاظ والمربد، من ظهور شاعرات وناقدات، كما قدمت لنا المدونة الأدبيّة والنقدية، عن تقييم أمّ جندب للشعر، لاكتشفنا أولا أن نسبة التمثيل لم تكن في صالح المرأة، فلم ترد إلينا أسماء سوى اسم أمّ جندب زوجة امرئ القيس، وثانيا أن الرجل الذي أعطى للمرأة حقّ الظهور والتحكيم، كان وصيًا عليها، فاختيارها للتحكيم لم يأت إلا بقرار منه، ومهاجمتها والتحيّز ضدّ رأيها، كان من الرجل نفسه، وهو ما يمثّل عنصرية وتطرّفا بغيضيْن.

ولنأخذ من الحكاية التي ساقها ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" عن علقمة بن عبدة الفحل في معرض حديثه عن سبب تسمية علقمة بالفحل، لنكتشف أولا أن المصادرة أو التحيّز ضدّ المرأة -وربما هو السبب الحقيقي لهذا الغياب وتلك الندرة- ليس وليد اليوم، أو حتى رهين نزعة دينيّة كما سعى البعض وتذرّع، بغرض تفريغ القضية من مضمونها الحقيقي، وإنما هي نتاج عقلية ذكورية متكلّسة منذ بداية الصدام بين الطرفين، عقلية أحادية ليس أكثر، لا تؤمن بالآخر المُختلف من ناحية الجذر، على الرغم من التحولات والمؤثّرات التي أسهمت في تكوين هذه العقلية، وأسهمت في أن تكون أكثر تحرّرا وإيمانا بالفكر دون تحيّز ضده بسبب اختلاف الجذر أو حتى الأيديولوجيا.

> **تاريخ الاغتيال المعنوي للمرأة من السلطة الأبوية قديم، وهو راسخ ومتواصل، لم ينتهِ عند عصر بعينه**

ومن ثمّ نطمئن بكل يقين إلى أن اختلاف البيئة الحاضنة ثقافيًا واجتماعيًا وأيضا سياسيًا، ليس له علاقة بهذا الموقف العدائي ضدّ المرأة ومنتجها الإبداعي والنقديّ.

فالخبر الذي أورده ابن قتيبة، في كتابه "الشعر والشعراء" يقول: فما إن تنافس علقمة الفحل مع امرئ القيس، وتجادلا إلى أمّ جندب زوجة امرئ القيس في أيّهما أشعر من الآخر، إلى آخر الحكاية المعروفة، في ترجمة علقمة الفحل. الشاهد من هذه الحكاية أنه عندما أقرّتْ أمّ جندب بأن علقمة أشعر من زوجها امرئ القيس مُستندة إلى ما قدمته من دليل استنبطته من سياق القصيدتيْن اللتيْن أنشداها أمامها في وصف الفرس على قافية واحدة، حتى أثار هذا الرأي حفيظة زوجها، وبدلا من مناقشتها فيما ذهبت إليه من أن علقمة "وصف فرسه بالسرعة المذهلة، وأنه يبلغ به غايته من الصيد وهو لا يزال يتوهّج نشاطا وقوّة، فهو ليس محتاجا إلى دِرّة يُحَفِّزه بها، ولا إلى سوط يُسَوّطه به ليَزيدَ من ركْضه، بل هو يركضُ من تلقاء نفسه كالريح المُرْسلة! في حين أنّ فرسكَ أنت (أي امرئ القيس)، تستعين على بلوغ صيدك مِن علَى متنه بالسّوط والدِّرّة، والتهييج والتنشيط، والزَّجر والتحفيز، وإلّا فما صنعتَ شيئا!.. وشتّان ما بينهما؛ وبناء على هذا فعلقمة أشعر منك وأفحل".

لم يجد امرؤ القيس حيال رأيها سوى الطعن في مصداقيتها، وعاطفتها، بل متهمًا إيّاها بالخيانة حيث قال لها «ما علقمةُ بأشعر منّي، ولكنك له عاشق!» فطلقها فخلف عليها علقمة، وفي رواية أبي الفرج الأصفهاني قال "ليس كما قلتِ، ولكنكِ هويته" وبهذا لقب بعلقمة الفحل.

أي حرية امرأة نحلم بها

وهو ما يمثل انحيازا ذكوريًا ضد المرأة.

ردّ الفعل القاسي من امرئ القيس يكشف عن أوّل صورة من صور اضطهاد المرأة ثقافيًا، وإن كان هذا الاضطهاد بدأ بحادثة أم جندب إلا أنه ممتدٌ إلى عصرنا الرّاهن، وهو ما ينقض القول بأنّ ندرة المفكّرات العربيات راجع بالأساس إلى الظروف التاريخيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة! فكيف الحال، وتبدُّل الظروف واختلاف السياقات لم يغيّر من النظرة الدونيّة للعقلية الذكوريّة الدونيّة ضدّ المرأة، ولم يجعلها تتبوّأ مكانة أعلى مما وضعت فيها من قبل، بل صار الماضي والحاضر يتساويان في ممارسة أشكال من العنف الرمزي ضدّ المرأة.

من جهة أخرى، أظهرت هذه الحادثة انحيازا تاما للعقلية النقديّة لرأي امرئ القيس ضدّ رأي أم جندب، فإذا كان طه حسين شكّ في قصة التحكيم جملة وتفصيلا، ونفس الشيء فعله تلميذه شوقي ضيف، حيث أرجع القصة بجملتها إلى "صنع الرّواة"، فإنّ ثمّة فريقا آخر أقرّ بحادثة التحكيم، وفي نفس الوقت انحاز إلى رأي امرئ القيس، ورأى أن السبب يعود إلى كراهية أمّ جندب لامرئ القيس.

وذهب الدكتور بدوي طبانة إلى أنّ أمّ جندب قد حكّمت هواها فعلا، وأنها ليست على صواب في ما التمسته من تعليل؛ لأن امرأ القيس لم يرد أنّ جواده لا يسير إلّا بتحريك الساقين، والزجر، والضرب بالسوط، فالحقيقة أن تحريك الساقين، واستعمال السوط لازمتان من لوازم كل فارس مهما يكن فرسه كليلا بليدا، أو جوادا حديدا، وذلك ليكون متمكنا منه. (بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي، ص 53). فرأي بدوي طبانة في حد ذاته محاولة للتقليل من شأن حكم أم جندب والتهوين من أمرها، على نحو ما ردّ عليه د. محمد إبراهيم نصر. (النقد الأدبي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ص 50).

العابثات وتكرر الاعتداء

لو قفزنا زمنا أبعد من حادثة أم جندب وزوجها، إلى بداية عصر النهضة، لوجدنا أن معظم نتاجات المرأة الإبداعيّة جاءت تحت أسماء مُستعارة، وهذا ليس مجال حديثنا، لكن فقط هذا التخفي الذي سعت إليه المرأة، يكشف عن الخوف من الإقصاء، والنظرة الدونيّة التي كان ينظر بها الرجل إلى إبداع ما سواه، وكذلك أن المناخ والبيئة الثقافيّة في ذلك الوقت لا تتقبّل هذا من امرأة، وهو ما يعني تحيزا ضد الجنر، الذي لا علاقة له به بما تكتب، أو بحجم موهبتها. كما أن ذكورية الرّجل تعمدت إقصاء المرأة عند التأريخ لنشأة الرواية العربيّة، فجميع المقاربات بدأت برواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التي صدرت عام 1914، متغافلين جهود الرائدات من النساء العربيات وخاصة في بلاد الشام بكونهن أول من دشن الكتابة الروائية على نحو ما فعلت زينب فواز في رواياتها الرائدة "حسْن العواقب" التي صدرت عام 1898، وبعدها بست سنوات كانت رواية "قلب رجل" للكاتبة لبيبة هاشم، ثم أصدرت في مرحلة لاحقة رواياتيها "حسناء الجسد" 1898، و"شيرين" 1907، وهي أعمال سبقت رواية محمد حسين هيكل "زينب"، التي لم ترَ النور إلا في عام 1914، كما يقول الكبير الداديسي في "أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة، ص 16، 2017".

ربما كانت هذه نظرة خاطئة أو حتى متوهمة، فلكلّ قاعدة شواذ، فهناك كاتبات كثيرات كتبنَ ومارسن فعل الكتابة دون أن تتعرض إحداهن إلى الإقصاء أو حتى التقليل من قيمة ما تكتب. لكن الحقيقة المؤلمة أن فعل الإقصاء مورس في كل الحقب، وما زال يُمارس إلى الآن.

يكفي قراءة كتاب شعبان يوسف "لماذا تموت الكاتبات كمدا؟" لأصابتنا الدهشة من حجم المأساة التي مارسها الفعل الذكوري والعقليّة المتزمتة، وأيضا لرأينا الفرق بين التحديث والحداثة، وبصورة عامة كيف صارت قضية المرأة الكاتبة منذ نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وحتى اللحظة التي نحياها تمثّل أزمة حقيقية، لا تنفصل عن كافة القضايا التي "تلاحق المرأة ككائن بشري له خصوصياته الحادة، وكذلك ككائن اجتماعي يراد السيطرة عليه بفرض القوانين، وتأويل النصوص الدينيّة ضده بكل الطرق للدرجة التي تصل إلى حدّ التسليع الرخيص لقيمة المرأة، وتحويلها إلى متاع يملكه الرجل والمؤسسة الدينيّة والسلطة السياسيّة" (شعبان يوسف، لماذا تموت الكاتبات كمدا).

شواهد كثيرة تؤكّد أن المثقف (الرّجل) على اختلاف انتماءاته الأيديولوجية، حَصَرَ المرأة في دائرة ضيقة، وأحكم حصاره عليها، حتى أنه صار بإمكانه أن يقرّر ما يَصْلُحُ لها، وما لا يَصْلُحُ، وهو ما يمثّل هيمنة ذكورية أو عنفا رمزيًا ضدّ المرأة الكاتبة فما بالنا بالمرأة غير المتعلّمة.

فعباس محمود العقاد ينحاز للرجل بصورة سافرة، ويقصر الشعرية عليه، دون المرأة التي يستبعد أن تكون لديها القدرة على أن تكون شاعرة في الأصل، وإذا أصبحت شاعرة، فسوف تكتب في الرثاء مثلما فعلت الخنساء مع أخيها صخر، ومثلما فعلت عائشة التيمورية مع ابنتها توحيدة، وهما استثناءان نادران، وما عدا ذلك فلم تنجب الدنيا كلها على مدى تاريخها أي شاعرة ذات شأن، لأن المرأة لا تستطيع أن تتأمّل مثلما يفعل الشعراء، ولكنها - هكذا حسم العقاد - تصلح للقص والحكايات. "شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي" (صدر عام 1937).

بيار بورديو:
لم يكن من الممكن اضطهاد النساء دون موافقتهن

جورج طرابيشي:
نوال السعداوي تبدو مناصرة للمرأة لكنها لا شعوريا معادية لها

العقلية التي لم تستوعب - من قبل - إمكانية أن يكون نقيضها أو نصفها الآخر يمتلك ذات الموهبة، وقادرا على الكتابة في ذات المجالات التي يدعّي فيها التفوق والريادة، نفس هذه العقلية لم تتقبل الأطروحات النقدية التي كسرت بها المرأة سكونية الإبداع، على نحو ما فعلت نازك الملائكة، في حديثها عن الشعر الحر، والذي بدأته مبكرا منذ أن نشرت قصيدتها الكوليرا عام 1947، وهو ما توجته بكتابها المهم والرائد "قضايا الشعر المعاصر" 1962، والذي درست فيه قضايا الشعر الحر دراسة مفصلة، ووضعت له عروضا كاملا، لكن أبت العقلية الذكورية هذا التفوق النقدي، فكيلت للكاتبة الاتهامات، وهوجم الكتاب هجوما شديدا، وسعى آخرون إلى سحب الريادة منها، ونسبها إلى الرجل، وكأن المسألة تختزل فيمن هو صاحب الريادة، وليس مسألة العقلية النقدية التي أنتجت هذه الأفكار التقدميّة، والتي تستحق الشكر والتتويج.

ينشر المقال كاملا على الموقع